مَوْلَىٰنَاۚ﴾[١]، وهي تعمُّ كتابة الجزاء هنا، وكتابة تَمْشِية الاختيار ممن يظلم بما يُصيب سواه، وكتابة الامتحان لمن يرتقي بما يُصاب صابراً عليه فـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[٢]، وعلى أية حال ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] صدوراً بإذنه أياً كان: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ...﴾[٤].

فإذا كانت المصيبة السيئة من عند الله بما كسبت أيديكم أم بما كسبت أيدي الناس أم وابتلاءً من الله، فقضيةُ الإيمان بالله أن تقول عندها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ مهما وجبت عليك الدفاع والانتصار، فإنها لا تطارد كلمة الاسترجاع.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عُقْباه وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه» و«ما من نعمةٍ وإن تَقادَم عَهْدُها فيجدّد لها العبدُ الحمدُ إلّا جدّدَ الله له ثوابها، وما من مصيبةٍ وإن تَقادمَ عهدها فيجدّد لها العبدُ الاسترجاعَ إلّا جدَّد الله له ثوابَها» - و«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قَبَضْتُم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم - فيقول: قَبَضْتُم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمد واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بَيْتَ الحمد» -.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.
(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٤) سورة النساء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

و«إن للموت فزعاً فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون وإنّا إلى ربنا لمنقلبون...». وليس فحسب مصيبة الموت التي يحق لها الاسترجاع، بل و«إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب» - وقد «طُفئ سراج النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فقيل: يا رسول الله ﷺ أمُصيبة هي؟ قال: نعم وكلّ ما يؤذي المؤمن فهو مُصيبته له وأجر» وعلى الجملة «قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كنّ فيه فهو العاقل ومن لم يكنّ فيه فلا عقل له، حسن المعرفة بالله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر لله»(١).

هذا! ثم و﴿قَالُوٓاْ﴾ هنا تلك المهمة الكبرى التي يبشر الله فيها، ليست هي - فقط - لفظة القول، كما الصبر - أيضاً - ليس من هذه المقولة، فإنما ﴿قَالُوٓاْ﴾ باللسان إخباراً عن حالة واقعة في الجنان، فألسنتهم قائلة وأعمالهم - عند المصيبة - عما في القلب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أم ﴿قَالُوٓاْ﴾ بلسان قالهم وحالهم وأعمالهم، فهم - إذاً - بكلّ كيانهم استرجاع لربهم عند مصائبهم. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ككلّ - في ذواتنا وصفاتنا وأفعالنا وإدراكاتنا، فكلٌّ ما لنا ومنا وإلينا، مماليك لله دون أية حرية طليقة عن مشيئة الله، فحين تصيبنا مصيبته لسنا نتضايق أبداً ولا نتساءل، لأنها ليست إلّا بإذن الله، ثم ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ كيفما كنا وأين وأنّى.

---

(١) الدر المنثور ١: ١٥٦ - ١٥٩ - أخرج كلّا جماعة عن النبي ﷺ، ومنها ما أخرجه الديلمي عن عائشة قالت أقبل رسول الله ﷺ وقد لدغته شوكة في إبهامه فجعل يسترجع منها ويمسحها فلما سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت فإذا أثر حقير فضحكت فقلت: يا رسول الله ﷺ بأبي أنت وأمي أكل هذا الاسترجاع من أجل هذه الشوكة؟ فتبسم ثم ضرب على منكبي فقال: يا عائشة إن الله ﷻ إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله وإذا أراد أن يجعل الكبير صغيراً جعله.

تُرى ما ذلك الرجوع؟ أرجوعٌ إليه عما كنا عنده؟ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١] دون انفصال علمه وقدرته وإرادته!.

أم رجوعٌ إلى عالمه الأخير في الدار الآخرة؟ ولم نكن فيها حتى نرجع إليها! ثم الرجوع إليها ليس - بالتمام - رجوعاً إليه حتى وإن كنا من قبل فيها!.

قد يعني ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ رجوعنا إلى ما كنا في ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ولكن أين؟

فهل رجوعاً إلى ما نحن الآن من ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ وهو تحصيل للحاصل؟!.

علّه رجوع إلى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ قبل الاختيار والتكليف إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً حتى نعلم شيئاً فكنا ﴿لِلَّهِ﴾ لا لأنفسنا، إذ لم نكن نسطع على شيء من أمرنا، فكذلك نرجع إليه بنفس الحالة، حيث الحياة البرزخية ثم الأخرى، لا خيرة للأحياء فيها: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢]. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣]. فـــ ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ اعتراف باختيار ما اختار الله لنا يوم الدنيا، وكما كنا مسيَّرين فسوف نَرْجِعُ إليه كما بدأنا.

أم ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ عن كلا المرحلتين من ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ حيث الرجوع وإن اقتضى البدء، فالأولى بدؤه، ثم الثانية تنتهي إليه مصيراً للمسير، فقولنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، اقرار على أنفسنا بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، إقرار بالهُلك[٤]... فإذ نحن في البدء «لله» اختياراً ودون اختيار، ثم في المصير ليس لنا اختيار، فأحرى لنا أن نختار في عالم التكليف والاختيار ما هو

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ١١.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٤) نور الثقلين ١: ١٤٤ عن أصول الكافي ونهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام.

يختار، تصبُّراً على المصاب، وقولاً بالصواب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ - ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُۜ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فعلى مَ تأسف وتجزع أيها الإنسان عند المصاب ولا يَمْلِكُكَ إلّا رب الأرباب، ثم وإليه المصير! فلا حَوْلَ لكَ ولا طَول في المصاب الذي ليس لك فيه ذهاب ولا إياب، اللهم إلّا الذي يأتيك جزاءً ليس لك عنهُ محيد.

ذلك! ولكن الصبر على المصاب حيث أصاب، لا يعني الصبر على كلّ ظلم وضيم، فإن واجب الدفاع عنده يحرِّض على كلِّ محاولة مستطاعة لدفع الظلم، فإنما الصبر على ما وقع منه دون جزع أو تساؤل على الله، ثم العمل الجادّ على دفع الإصابة المشرفة، وإزالة البقية من الواقعة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

وعلّ هذه الثلاث - وأنعِم بها وأبشِر - هي المبشَّر بها في ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

فـ ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هي رحمات عدة، يرفعهم الله بها إلى المشاركة في نصيب نبيِّه حيث يُصلي عليه هو وملائكته، فهي صلوات زيادة على عامة الصلوات في ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[2]، ثم ﴿وَرَحْمَةٌۖ﴾ خاصة مع هذه الصلوات الرحمات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ وكأنه لا سواهم ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، فهنالك صلوات تعمُّ المؤمنين، ثم خاصة تخصُّ الشهداء منهم والصابرين، ومن ثم أخص تخصُّ النبي ﷺ وأهله المعصومين عليهم السلام، وكما أمرنا أن نصلي عليهم لمّا نصلي عليه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

وقد تعني ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ هنا لقرنها بـ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ انعطافات ربانية عليهم تخلّف رحمة عظيمةً تلمح لها التنكير في ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وقد يدل عليه «يُصلّي عليكم ليخرجكم» حيث الإخراج من الظلمات إلى النور هو الرحمة، إذ فـ ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ انعطاف لذلك الإخراج عن ورطة الإحراج، وكما أن ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ تخلّف ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ كذلك الرحمة تخلف الهداية، ثلاثة ردف بعض، كلّ تنتج الأخرى، مهما كانت كلٌّ صلاةً من الله ورحمةً وهدايةً، إلّا أن الاختلاف هو في الدرجة.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾:

آية وحيدة في شعيرة الصفا والمروة و: «التطوف بهما»، وهو فريضة في الحج والعمرة، ورُكْنٌ فيهما، فترى كيف يعبّر عنه بـ«لا جناح» سلباً لحُرْمَتِه، ثم ﴿تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ إيجاباً لندبه، والفريضة هي فوق الوجوب المتعوَّد؟!.

«لا جناح» - بالنسبة لهذه الشعيرة الفريضة - تلمح أنه كان يخلدُ بِخَلَد المسلمين يومذاك جناحٌ في التطوُّف بهما، وكما تدل عليه أسباب نزول عدة: «أن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيءٌ صنعه المشركون» فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1]، ولأن أصناماً

(١) في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث . . . وإن المسلمين . . . وفي الدر المنثور عن أنس أنه سُئل عن الصفا والمروة - قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله الآية، وفيه عن عمرو بن حبيش قال سألت ابن عمر عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا﴾ فقال: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأتيته فسألته فقال: إنه كان عندهما أصنام فلما أسلموا أمسكوا عن الطواف بينها حتى نزلت الآية.
وفيه عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام لقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: لما أنزل الله الطواف بالبيت ولم ينزل الطواف بين الصفا والمروة قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وإن الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف =

كانت على الصفا والمروة أو بينهما فكيف نسعى بينهما؟[١] فنزلت آية اللّاجناح سلباً لذلك الجناح المزعون، ثم ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ تثبت فرض السعي فإنها - ككلّ - مفروضة على المسلمين في مجالاتها: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[٢] ومن تعظيمها تطبيقها بعد تعظيمها معرفياً وعقيدياً وقولياً، ومن أعظمها إذاعتها بين الجماهير، إذاً فترك تعظيمها هو من طغوى القلوب أم خلاف تقواها، والتقوى بصورة عامة ولا سيّما ﴿تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ المستطاعة واجبة على أصحاب القلوب: فـ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٣] - ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٤] [٥].

= بين الصفا والمروة فهل علينا من حرج أن لا نطوف بهما فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا﴾ قال أبو بكر: فاسمع هذه الآية في الفريقين كلاهما فيمن طاف وفيمن لم يطف.

(١) في الدر المنثور ١: ١٦٠ عن عامر الشعبي قال: وثن بالصفا يدعى إساف ووثن بالمروة يدعى نائلة فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنين فلما قدم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ﷺ إن الصفا والمروة إنما كان يطاف بهما من أجل الوثنين وليس الطواف بهما من شعائر الله فأنزل الله الآية . . . وفيه عن عائشة أن عروة قال لها: أرايت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما ولكنها إنما نزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهللون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ قالت عائشة ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

وفي تفسير البرهان ١: ١٧٠ عن تفسير العياشي في خبر حماد بن عثمان قال أبو عبد الله عليه السلام: إنه كان على الصفا والمروة أصنام فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون فأنزل الله هذه الآية فكان الناس يسعون والأصنام على حالها فلما حج النبي ﷺ رمى بها.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٥) في فرض السعي أحاديث عدة منها ما في الدر المنثور ١: ١٦٠ - أخرج الشافعي وابن سعد =

وقد تقتضي طبيعة الحال نزول آية اللّاجناح عند أوّل فرضٍ لعمرة أو حج، وهو عمرة القضاء - سابع الهجرة -، أن رسول الله ﷺ شرط عليهم - فيها - أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة فسُئل عن رجلٍ ترك السعي حتى انقضت الأيام وأُعيدت الأصنام فجاؤوا إليه فقالوا يا رسول الله ﷺ: إن فلاناً لم يَسْعَ بين الصفا والمروة وقد أُعيدت الأصنام فأنزل الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: «وعليهما الأصنام»(١).

ومن ثم حجة الوداع حين حج رسول الله ﷺ والمسلمون أجمع من استطاع إليه سبيلاً كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام.

أم أنها نزلت قبلهما حيث كان يتفلّت بعض المسلمين لأداء حجٍّ أو عُمْرةٍ فرادى وفي خفيّة قبل عمرة القضاء وحجة الوداع، ممن كانوا - بعدُ - في مكة المكرمة، أم يقصدونها دونها، وعلّها نزلت مرات، أم تليت على المسلمين مرة بعد أخرى ولا سيّما في حجة الوداع وكانت أحرى بها، ولأن الطواف بهما - بعدُ - بسوء السابقة لهما لوجود الأصنام، كان تكلّفاً للموحدين الجُدُد، الباغضين الأصنام، لذلك يلحِّق اللّاجناح هنا بـ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ حيث التطوع هو تكلُّف في الطوع لكراهية قلبية أماهيه سواء أكان في ندبٍ لعدم فرضه، فالآتي به يتكلّف زيادةً على واجب التكليف، كما في تطوع الصوم على الذين يُطيقونه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ

= وأحمد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن خبيثة بنت أبي بحران قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول: واسعوا فإن الله عزوجل كتب عليكم السعي، وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ فقال: إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا.

(١) نور الثقلين ١: ١٤٨ عن الكافي سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنة؟ فقال: فريضة، قلت: أو ليس قال الله عزوجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البَقَرَة: ١٥٨]؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء إن رسول الله ﷺ . . .

فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] فالصوم لمن يُطيقه هو من تطوّع الخير لصعوبته في نفسه، كما أن قسماً من المندوب من تطوّع الخير صعوبة نفسية لأنه زيادة على الفرض.

أم هو تطوّع في فرض كما هنا إذ كانوا يتحرجون من الطواف بهما ظناً أنه سُنَّة جاهلية، وعلماً أنهما كانا محل الأصنام ومطافها، فهنا الله يشكر الطائفين بهما، علماً بهذه الكراهية، وعلماً بأنه من الشعائر التي لا تُتْرَك بحالٍ، وعلماً بأن في ذلك صلاح الجماعة المسلمة.

وهذه ضابطة سارية المفعول في كلّ الحقول أن تطوُّع الخير خيرٌ عند الله، وعلى ضوئها الحديث «أفضل الأعمال أحمزها».

فقد يكون تكلُّف التطوّع - فقط - بدنيّاً كصوم المطيق له، لإزالته الطاقة البدنية، أم - فقط - نفسياً، كالآتي بالمندوب أو المفروض، مستهل التطبيق، ولكنه مستصعب في وجه الحكمة.

أم هو متكلَّفٌ فيه نفسياً وبدنياً كالتطوف بالصفا والمروة، فاجتياز تلك المسافة البعيدة مرات سبع، بزحام بالغ، وحرّ حارق، وصدام في الجمع حانق، ذلك تكلُّفٌ بدني! ثم هو تكلُّفٌ نفسي في بعدين اثنين ثانيهما خفاء وجه الحكمة في ذلك الفرض الركن، إضافة إلى أوّلها، تحرجاً عن موقف الأصنام وسنة كأنها جاهلية.

فليس التطوّع - إذاً - ليدل على ندب المتطوع فيه كما لا يدل على فرضه، فقد يكون ندباً ولا تطوع فيه كالسواك والنكاح أمّا شابه، أو يكون فرضاً فيه تكلُّف كفرض الحج بكلّ مناسكه، فالتطوع في صيغة واحدة هو تكلُّف التطوع، سواءٌ أكان في فرضٍ أو ندبٍ، ولقد كانت الدعوة الجادة الجديدة الحادة ضدّ الشرك وطقوسه، هزت أرواحهم هزّاً، وتغلغلت فيها

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

إلى الأعماق، فأحدثت انقلاباً نفسياً حتى لينظرون بجفوةٍ وتحرّزٍ إلى ماضيهم الجاهلي، حيث انفصلوا عنه انفصالاً تاماً طاماً كلّ كيانهم، فلم يعُد منهم في شيء، ولم تعد دوامته في شيءٍ، فكيف يطوفون بالصفاء والمروة وهو من طقوس الجاهلية - بزعمهم - وهو موقف الأصنام في الواقع الماضي، ومدفنها بعد الماضي!.

هذا - ولكن شُرْعَةَ الحق تريد الإبقاء على بعض تلك الشعائر لأنها من شعائر الله، مهما اتخذتها الجاهلية الجهلاء من شعائرها، واستغلتها لحرمة الأصنام إذ كانوا يلمسونها في طواف البيت والسعي، نَزْعاً لها عن أصلها الجاهلي، وعوداً بها إلى أصلها الإلهي، فليست الشعيرة الجاهلية المتَّخَذة لتمحو الشعيرة الإلهية الأصيلة قبلها فـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾! وترى ما هي شعائر الله بوجه عام؟.

لقد جاءت شعائر الله في ثلاث أخرى، كما ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[1] بل والحج بمناسكه ككلّ من شعائر الله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2] إذ هي تأتي بعد آية الحج بمناسك له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.

ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ . . .﴾[١]. فالحج ككلّ هي شعائر الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[٢]. فلأن تعظيم شعائر الله هو من تقوى القلوب، وهي مفروضة قدَرَ المستطاع، ثم إحلالها - ومنه تركها - منهي عنه هنا، إذاً نتأكد أن التطوّف بالصفا والمروة هو من تقوى القلوب الواجبة، لا يجوز إحلاله، وإنما «لا جناح» سلب لجناح مزعوم.

ثم الشعائر - لغوياً - هي جَمْع الشعيرة، وهي ما تُشعر وتعلن بدقة على كونها محسوسة باهرة ظاهرة، كما الشعار هو ما يشعر به الإنسان نفسَه أي يُعلم، فالمشاعر والشعائر هي المعالم الظاهرة المتظاهرة الإلهية التي تُعلِم وتُعلِن للناس حقائق جمّة بدقة وهمامة، فقد يكون شعار بلا شعور، أم شعور بلا شعار، ولكن شعائر الله تجمع إلى الشعار الشعور، والى الشعور الشعار، فهي مذياعات صوتية وصورية إلهية للإسلام تعريفاً به ككلٍّ، وتشريفاً له ككلّ، في مناسك هي في الأكثرية الساحقة أو المطلقة أعمال أم تروك بلا ألفاظ إلّا قلة قليلة هي التلبيات والصلاة، إذاً فليست الأعمال الجوانحية من شعائر الله، ولا كلّ الواجبات أو الفرائض الجوارحية هي من شعائر الله، وإنما هي مذياعات الشرعة الإلهية بطقوسها الجماعية المعلَنة، التي تدل بدقة ولطافة على حقائق رقائق في شرعة الحق.

وكما أن ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ في المائدة مصداق محوري للشعائر لأنه مسرح زمني لشعائر الحج، كذلك ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ هما مسرح مكاني لشعيرة السعي، فليس الزمان والمكان أيّاً كان شعيرة إلهية إلّا بما يحل فيهما من شعائر الله.

(١) سورة الحج، الآيات: ٢٧-٣٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢١.